حلف الناتو: نهاية الوهم (١)

بقلم: حمد محمد المرعي

لم اتصور انني سأعود يوما ما مرة اخرى لهذا الحلف، اول وآخر مرة تناولت هذا الناتو كانت في العام ١٩٧١ - قبل اكثر من ربع قرن وذلك في بحث اكاديمي - ميداني - جيوبوليتيكي مطول عندما كنت طالب دراسات عليا في العلاقات الدولية في احدى الجامعات الاميركية. كنت حينها قد التقيت في مناقشة مطولة مع الاستاذ جيمس افري جويس، وكان استاذا زائرا وناشرا لكتاب جدلي عنوانه NATO:End of an Illusion (عنوان هذا المقال نفسه والذي استعرناه منه). وقتها كانت الحرب الباردة ساخنة جدا وكانت معارك فيتنام في اوج نهاياتها البائسة، ولكن وقتها ايضا كان جميع حلفاء اميركا في الناتو - حكومات وشعوبا، ضد حرب فيتنام تلك، حتى كاد ان لا يبقى من الحلف الا اسمه.

اعود لهذا الموضوع بعد اكثر من ربع قرن وقد ظهرت عوامل ومعطيات ومتغيرات جديدة، وبعد ان انتهت الحرب الباردة وانهار جدار برلين، واصبح العالم معسكرا غربيا واحدا. نعود الان بعد ان اندثر حلف وارسو وانتقل الى العالم الآخر وانتفت فائدة الناتو لنجد بدل ان ينتهي امر هذا الحلف ان عدد دوله قد تضاعف بعد انضمام دول اوربا الشرقية - يسرا او قسرا - لهذا الحلف. كان الهدف الظاهر لحلف الناتو، او بالاصح لاتفاقية شمال الاطلسي الدفاعية، هو حماية دول غرب اوروبا من الشيوعية، او تحديدا من الاتحاد السوفيتي. اما الهدف الحقيقي فهو حماية الولايات المتحدة، عن طريق تحجيم اوروبا، من الحركات الشيوعية ولحفظ عذرية اميركا الرأسمالية من التدنيس والامتهان. ولنتذكر فقط الفترة المكارثية التي زامنت انشاء «الناتو» عند اصرار القائد الجنرال مكارثي على قصف الدول الشيوعية بالقنابل الذرية وعندما بدأ الكونغرس الاميركي يزج المثقفين والفنانين من ذوي الميول الاشتراكية في السجون او قطع ارزاقهم وفقا لما يسمى بـ «القائمة السوداء». لقد كان حلف الناتو في الحقيقة غزوا اميركيا لقارة اوروبا حينما وقعت تلك القارة فريسة جاهزة للتوسع الاميركي بعد الحرب العالمية الثانية. فبعد خطة «مارشال الاقتصادية» لاعادة بناء وتنمية اوروبا، تمثل ذلك الغزو في انتشار الافلام والصحف والثقافة الاميركية في شوارع اوروبا وانتشرت مطاعم الوجبات السريعة وغيرها من البضائع والكماليات. ولكن كان هذا ما هو ظاهر، اما ما هو خاف وهو الاهم فهو ظهور الشركات الدولية العملاقة تحت الهيمنة الاميركية. ولكن الاهم من كل هذا وذلك هو انتشار القواعد الاميركية، من جنود المشاة الى القواعد الذرية، في طول اوروبا وعرضها، ليس ذلك فقط، بل ادخلت الاجهزة الدفاعية الاوروبية في منظومة الدفاع الاميركي وتحت قيادته وهيمنته الى ادنى التفاصيل. ومن منا لا يعرف الجدل الكبير حول هذا الامر وانسحاب فرنسا ديغول جزئيا من ذلك الحلف في الستينات.

كذلك كان الامر وهو لايزال هكذا، الاختلاف الوحيد هو انه في هذا القرن الحادي والعشرين الجديد، كان من الضروري ان تجد اميركا لهذا الحلف دورا جديدا، ليس لابقائه واستمراريته فقط، بل ليتناسب مع ما احتلته اميركا من هيمنة دولية بعد تفكك المعسكر الشرقي واندثار الكتلة الشيوعية والتي كانت ذريعة انشاء حلف الناتو اساسا. ولا يخفى ان يكون هذا الدور تحديدا، وكما تريده الولايات المتحدة، هيمنة اميركية دولية بلا منازع، وهكذا يجب ان تكون الامور. والا فكيف لنا ان نفسر انه في الوقت الذي يجب ان تكون صلاحية هذا الحلف قد انتهت مع اندثار المعسكر الشرقي والكتلة الشيوعية، نجد ان هذا الركض الاميركي لادخال دول اوروبا الشرقية، عن طريق الانتقاء حينا والتحايل حينا آخر، في هذا الحلف، مع انها دول عديمة القدرة وعديمة القرار المستقل. كانت هذه المقدمة - الخلفية ضرورية لالقاء بعض الضوء على ما يجري في سماء اوروبا من سحب ملتهبة، او تحديدا قصف الناتو لاول مرة في تاريخه، وخارج كل الاطر الدولية، لدولة اوروبية لها اهمية تاريخية واستراتيجية لدرجة ما، الا وهي يوغسلافيا، والتي كانت يوما ما قطبا من اقطاب دول عدم الانحياز في اوج مجابهات حلفي الناتو - وارسو. نحن نعتقد ان حماية مسلمي كوسوفو الالبان هي المبرر والذريعة، ولكن لا يمكن ان تكون السبب الحقيقي. فكوسوفو لا تحتل حتى مكانا بائنا على الخارطة الاوروبية ولم يكن لها او لقضية مسلميها - وهم جزء بسيط، او لما يلاقونه من الهوان وهو امر شائع في اوروبا العنصرية، بل لقد طال مسلمي اوروبا من غير كوسوفو هوان ومعاناة ابشع واقسى في عصرنا الحديث. نحن نؤكد انه حتى الغاء استقلال كوسوفو الذاتي لم يكن حتى ليجلب بعض اهتمام بعض من الـ١٩ دولة في حلف الناتو (وخاصة ان اكثرها له علاقات تاريخية واقتصادية واستراتيجية مع يوغسلافيا)، ناهيك عن قصفهم النوني لها. وللعلم فقط فان تكاليف مشاركة الولايات المتحدة في قصف يوغسلافيا زادت عن ٦٠ مليون دولار يوميا وذلك في الاسبوع الاول من العمليات وقبل زيادة الاساطيل البحرية والجوية مؤخرا. ولذا فنحن نؤكد ايضا ان السبب الحقيقي، والذي يجب ان لا يكون خافيا لمن قرأ في التاريخ والسياسة الاميركية، هو شيء آخر ومآرب اخرى لزعيمة حلف الناتو. ولهذا فانه يجب ان لا يخفى علينا ولو لوهلة واحدة ان اكثر دول حلف الناتو لم يكن لها حول ولا قوة في هذه المسألة اليوغسلافية التي خرجت علينا فجأة من الظلام الدامس. ونضيف ان صور الفظائع والاجرام الصربي في البوسنة مازالت طرية في اذهان القيادة الاميركية والقيادات الاطلسية. اما المناطق الآمنة تحت حماية عساكر الناتو فقد كانت نكتة القرن. لقد ظلت المذابح البوسنية تغطي شاشات التلفزيون في مخادع رؤساء دول حلف الناتو الاصلية ولمدة تزيد على السبع سنوات: حدث فيها ما بدأ بالتجاهل ثم التحايل ثم التضليل ثم محاولات الاخفاء والتغطية ليحظى بعدها ما تبقى من عجائز ومعاقي مسلمي البوسنة لجزء من دولة ذات استقلال وسيادة جزئية وبمشاركة من: الصرب والكروات!! ولقد تم ذلك من خلال مؤتمر دايتون الاميركي وليس الاوروبي، ولقد كانت مسرحية حتم عنصر التضليل فيها اختفاء موفد الامم المتحدة وزير الخارجية الاميركية الاسبق سايروس فانس وكثرت الاستقالات لمسؤولين كبار في وزارة الخارجية الاميركية احتجاجا على تهاون الادارة الاميركية الواضح في مسألة مذابح البوسنة. والا فكيف نفسر انه حينما اصبحت القضية البوسنية مؤخرا قضية اميركية (ولنتذكر الجدل الكبير بين دول اوروبا الرئيسية مع الولايات المتحدة حول هذا الشأن وما تم بعده من حساسيات واختلافات) بينما كانت القضية الكويتية وانهاء الاحتلال العراقي قضية تحالف دولية اما اوجلان واكراد تركيا فهي شأن تركي وغير هذا الكثير. والا فكيف لنا ان نفسر تجاهل مذابح اكراد حلبجة العراقيين والمليوني توتسي على يد الهوتو في رواندا الافريقية، وغير هذا الكثير في شتى بقاع الكرة الارضية، وكل هذا تم تحت انظار الناتو وبعد اندحار حلف المعسكر الشرقي وارسو؟. (الجدول (١) يبين بعض المهجرين والمذبوحين).

جدول (١)

البلد	مهجرون	مذبوحون
كمبوديا	٢ مليون	١,٥٠٠,٠٠٠
البوسنة	٢ مليون	٢٥٠,٠٠٠
رواندا	٣ ملايين	١,٠٠٠,٠٠٠

ان الامر بعد الدراسة والتمحيص والتحليل والقراءة بين السطور وخلفها لتوضح لنا امرين لا ثالث لهما: اما ان الامر يخفي في طياته تشريد مسلمي كوسوفو بدل تجميعهم، وتوزيعهم شتاتا في قارات العالم الخمس كما حدث للارمن والاكراد والفلسطينيين. او ان اميركا لا تطيق ان يكون هناك كوريا شمالية او كوبا او عراق وسط القارة الاوروبية تكون كسكين اخرى في خاصرة اميركا اليمنى بعد كوبا التي اصبح امرها في عداد المنتهى منه، وبعد سكين كوريا الشمالية في خاصرتها اليسرى والتي تستميت اميركا في محاولاتها القضاء عليها او تدجينها بطريقة او باخرى او ادخالها للهيمنة الاميركية بالاغراء احيانا وبالتهديد احيانا اخرى. [الجدول (٢) يبين المهجرين الكوسوفيين في الاسبوع الاول فقط من معركة يوغسلافيا].

شتات الكوسوفيين جدول (٢)

البانيا	٣٠٠,٠٠٠
مقدونيا	١٢٠,٠٠٠
مونتينيغرو	٦٠,٠٠٠
البوسنة	٢٥,٠٠٠
تركيا	١٠,٠٠٠
دول أخرى*	١٠٠,٠٠٠

الخ..* اميركا، كندا، بريطانيا، فرنسا، المانيا، ايطاليا

(يتبع)

حلف الناتو: نهاية الوهم (٢)

بس
الاثنين ١٩٩٩/٥/٣ - العدد ٩٣٩١

بقلم: حمد محمد المرعي

ونتابع عن حلف الناتو والمغالطات السياسية
يركية في القرن الحادي والعشرين ونعود ونقول،
لا يجوز لنا الاستغراب البتة، في انه لا يمكن
ركا في هذه الحقبة من الزمن، وهي بصدد قيادة
م القرن الحادي والعشرين - وربما ما بعده - في
يكون لها مشارك او منازع او يظهر من يتمرد
ها، خاصة في اوروبا مثل يوغسلافيا، وخاصة
ها لجنس عرقي موال تاريخيا ودينياً لروسيا
هم من صرب السلاف الارثوذكس.

لهذا، أخذت اميركا الأمر بيدها، تحت غطاء
ف الناتو، ومبررة ذلك بأن القضية اوروبية بحتة.
ه بلا شك عودة بائسة الى الاقليمية العنصرية
ي يقودها الجنس الانجلوسكسوني البروتستانتي
يض منذ زمان قديم.

الأمر الآخر، الذي لا يخفى على المطلعين، فانه مع
القضية الكوسوفية لا يمكن عزلها عن نطاق الامم
حدة، الا انه لم يكن لأميركا الا المسارعة، وبطريقة
اجئة في قطع الطريق على ذلك الجهاز الأممي،
ك عن سابق تخطيط ودراية بأنه ليس من صالح
يات المتحدة، ولا نقول مسلمي كوسوفو، أن
خل في مثل هكذا مصالح أميركية - وذلك مثلها
ما تفعل أميركا مع القضية الفلسطينية وقضايا
أميركا اللاتينية. انه إشعال الإشكالات واحتكار
ضايا لمصالح عنصرية أنانية في ابشع صوره -
اصة ان المذهب الارثوذكسي ليس ذلك المذهب
سب للمزاج الأميركي. ومن جهة أخرى، انه ابتزاز
سيا وهي في حالة إفلاس وتخبط، أو ضياع
اسي - اجتماعي، والمحاولة في أن يتم احتواؤها
هورياتها بالكامل وكأنها جزيرة صغيرة بحيث لا
م لها قائمة بعد الآن، وذلك للتفرغ للصين وثقلها
كاني والاقتصادي العالمي الكبير. ولنستذكر فقط
دث لأسبانيا في حرب الفلبين في القرن الماضي
ميركا أو اقتطاع «جمهورية تكساس» من
سيك بطريقة تحايلية، وذلك لضمها الى مقاطعات
الولايات المتحدة آنذاك، أو معركة خليج الخنازير في كوبا.

والكشف يطول هنا. انه التوسع الأميركي على حساب الغير، والذي بدأ بإبادة هنود الغرب الاميركي. فجذور وأساس نشأتها يحتم عليها أن لا استمرارية لها إلا بالحروب، وهكذا صنيعتها المسخ إسرائيل.

وبنظرة واحدة ولو سطحية للتكتيك الأميركي في حرب يوغسلافيا نخرج بأكثر من سؤال وأكثر من علامة استفهام: إذ كيف يتسنى لحلف الناتو حماية مسلمي البوسنة بتكنولوجيا القصف الجوي فقط؟ بل كيف لأميركا ان تضمن عملياتها الحربية وهي التي تذيع على الملأ ليل نهار عن أن بعض عملياتها سوف تبطئ بأسباب العوامل الجوية أو عدم صلاحية مطارات ألبانيا مثلا لطائرات «الأباتشي»؟ والمضحك المبكي إعلانها وتأكيدها أنها لن تدخل في حرب برية، علما بأن الحرب البرية هي لازمة وضرورية للدفاع عما هو فوق الأرض من بشر، ان الحرب حيلة وخداع، وحتى ان كانت أميركا تخشى الحرب البرية، فعلى الأقل يجب ألا تعلنها وتؤكدها وكأنها تقول ليوغسلافيا «قدر يا ثور افهم يا بقر». لو ان صدام العراق حظي بثلث ما حظي به ميلوسيفيتش الصربي من معلومات عن سير الخطط الحربية لتغيرت حرب الخليج الثانية بالتأكيد.

ان المتابع لمؤتمرات الناتو الصحفية والتقريرية ليفهم أنها أعمال علاقات عامة تلميعية أكثر منها خوض في الحقائق الصلبة. هل هو التناقض أم النفاق الأميركي؟ بالتأكيد ليس التناقض، لأن التناقض لا يصدر إلا من جاهل في الأمور، وحاشى حلف الناتو هذا. إن ما يحدث في كوسوفو هو نسخة طبق الأصل لمذبحة دير ياسين فلسطين قبل أكثر من نصف قرن بعد الانسحاب البريطاني المفاجئ من فلسطين وتركها فريسة سهلة للصهاينة اليهود. الفرق فقط هو تأكيد أميركا على أنها لن ترسل قوات برية الى كوسوفو الا بعد فرش سجاد أحمر لجنودها وبعد أخذ اذن من زعيم الصرب. وهكذا يترك ضعفاء المسلمين في كوسوفو ليساقوا كقطيع الخراف الى مسالخ الصرب أمام نظر الناتو وأبصاره والعالم أجمع. إن هذا التسارع غير المعقول وغير المقبول لقصف يوغسلافيا أدى الى التهور والتخبط والحسابات الخاطئة لمجريات الأمور. إنه لم يؤد إلا الى إعطاء الضوء الأخضر لصور المذابح البشرية لمسلمي كوسوفو على أيدي الصرب. ولتغطية هذا التخبط وسوء التقدير نجد الناتو، بزعامة أميركا، يهدد ويتوعد بمحاكمة مجرمي الصرب، مع إضافة بند إن عاجلا أو آجلا.

إن هذا لاستغفال سخيف ما بعده استغفال. ألا يرون مجرم الحرب الصربي كارادزيتش ومجموعته يمرحون ويسرحون أمام أعين العالم أجمع بمن فيهم عساكر حلف الناتو؟ ولكن والحق يقال فإنه يجب علينا أن نعتذر عن إغفالنا لبند أو شرط للناتو بأنه لمحاكمة هؤلاء المجرمين، عليهم أن يسلموا أنفسهم أولا لمحكمة العدل الدولية في لاهاي، وليس من مسؤولية الناتو مطاردتهم أو حتى القبض عليهم إلا من خلال مصادمات عسكرية. إنه نفاق ما بعده من نفاق. إلا أن الأمر اليقين ليس هكذا ولا يمكن ان يكون، الأمر ببساطة يتلخص في أن في تاريخ أميركا الحربي المعاصر مجرمي حرب، وهم كثر، قد يؤدي الإصرار على هذا الأمر لمحاكمتهم أيضا، خاصة أنه ليس هناك حدود زمنية لهكذا جرائم في حق البشرية. ومع كل هذا فإن التاريخ قد علمنا أن مجرمي الحرب هم فقط من تعرض للدم اليهودي المقدس (حتى ولو بطريق التزوير أو الكذب وهو أسلوب شائع، شئنا والعالم أجمع هذا أم أبينا). خلاصة هذا أن قصف يوغسلافيا لم يكن من دوافعه إنسانية حلف الناتو تجاه مسلمي كوسوفو.

ولتوضيح بعض من هذا النفاق للنظر الى قضية تفجير طائرة الـ «بان أميركان» فوق لوكيربي الاسكتلندية والقائمة مشكلتها حاليا. لقد أقامت هذه القضية الدنيا ولم تقعدها. وفي البداية أشير الى سوريا ثم الى ايران بأنها وضعت المتفجرات في الطائرة في مطار فرانكفورت الى ان استقر المطاف باتهام ليبيا.

ولكن ماذا حدث للطائرة الليبية المدنية التي فجرتها اسرائيل فوق سيناء او الطائرة المدنية الايرانية التي قصفتها البوارج الأميركية فوق الخليج؟ أو أين هي قضية قصف المدفعية الاسرائيلية لفرقاطة حليفتها «ليبرتي» الاميركية في البحر المتوسط في حرب ١٩٦٧؟، بالطبع بالنسبة للناتو وأميركا فهذه قضايا غير ذات أهمية ومن السهولة ان يئدها التاريخ حية.

إن أميركا وبعض دول اوروبا في حلف الناتو لاتريد جنسا مثل الصرب أو جنسا مثل المسلمين لأن هؤلاء لهم تطلعات قومية. ولهذا كان هناك إحراج خفي من بعض دول الناتو الجديدة الضعيفة من جيران يوغسلافيا عندما استدرجوا عميانا للانضمام للناتو، وحالما تم ذلك بدأ التسارع الغريب لقصف يوغسلافيا. أما الإحراج فما هو إلا بسبب كون هذه البلاد جيرانا ليوغسلافيا، وستكون كذلك الى أبد الآبدين إضافة الى روابطهم التاريخية والجيوبوليتيكية معها. ويذكرنا هذا بـ «مجلس التعاون العربي» (العراق، الأردن، مصر، اليمن) الذي أنشأه صدام في طريق غزوه للكويت. إنه للغز مدهش حينما يكون الناتو مثل مجلس التعاون العربي بينما يكون ميلوسيفيتش تلميذا عند صدام. ولا شك ان المطّلع المتابع سيلاحظ مدى تطبيق ميلوسيفيتش لجميع تكتيكات وأساليب صدام سواء في حرب البوسنة أو في حرب كوسوفو. وهذا ما حاول تأكيده لي أيضا صديق أميركي في نيويورك يتعامل مع هكذا أمور. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن أميركا كونها محكومة بالآلة العسكرية والصناعة العسكرية ذات اللوبي الأخطبوط، أن تجرب تكنولوجية أسلحتها باستمرار جيوشها، ليس في مناورات صورية، بل في حية حقيقية. وان لم تكن هناك مناطق سا العالم فلا بد من خلق واحدة. وإلا فكيف أصحاب القرار في الكونغرس الأميركي السلاح وعملاؤهم من الابداعات التكنولوجية لصناع الأسلحة الأميركية؟ ان صناع ال وشبكات التلفزة الإخبارية صنوان لا يفترقان: يرتزق على المناطق الساخنة والأحداث الس وبئس من يطوله هذا، أو من لا يرضى بهذا.

وهكذا يتحقق لأميركا رضي حلفاؤها في لم يرضوا، من ضرب ليس عصفورين، عصافير بحجر واحد: إنهاء التطلعات الـ والإسلامية القومية في اوروبا، والقضاء على واستراتيجية يوغسلافيا الاوروبية، واست عضلاتها العسكرية بعد أزمتها في الصوم ١٩٩٢، وفي الوقت نفسه تلميع سمعتها بعد في البوسنة عام ١٩٩٤. ولكن قد يكون مع ه نبض روسيا في مداولات أو حتى مص عسكرية للقضاء عليها او على سمعتها با وهذا موضوع وارد. أو أن اميركا ستتخذ من تحت غطاء الناتو، شرطيا عالميا، ولكن ليس العدالة الانسانية، بل للقضاء على كل من معها. وهذا أمر وارد أيضا، ولكن ليس هنا مج الأمور. ولنستذكر فقط قضية نوريغا - نيك والعرب الأفغان، وتجارب أميركا الذرية على مو وتجارب المخابرات الأميركية لأدوية الهلوس مواطنيها أيضا. والكشف يطول. وما لن نستذكر كذلك ان صدام حسين ما زال باق مئات البلايين من الدولارات التي ابتزت من بلدان الخليج المهزوزة. ولنا فقط أن نعلم ان ح اسرائيل هي الهدف الأول من القضاء على وترسانته الحربية، ولا غير هذا ولا يحزنون.

القبس

حلف الناتو في عيده الخمسين (٣)

الجمعة ١٩٩٩/٥/٧

البحث عن دور جديد أو ضياع في المجهول

بقلم: حمد محمد المرعي

لقد وفق الأخ الفنان عبدالوهاب العوضي أيما توفيق بكاريكاتيره الرائع في جريدة «القبس» قبل أيام بتصويره الكوسوفيين يتساقطون الى الهوة السحيقة من طائرات الناتو، وأوجز ما تعجز عن تبيانه المجلدات من الكتب. انها بلا شك حرب كلينتون غير المعلنة. ولنختم بحثنا المقالي عن الناتو ولو مؤقتاً، فلا بد لنا من ان نستذكر مذابح البوسنة والحصار العسكري عليها تحت مقولة «حتى لا تتأجج النار ضرامة أكثر»، علماً بأن السلاح كان يتدفق للصرب والكروات من كل جهة إضافة لما تنتجه مصانعهم. وبعد أن طالت المدة بدأت دول النفوذ بالتدخل خوفاً من فقدان مصداقيتها وانزلاقها تحت أضواء وضغوط الرأي العام العالمي بما فيه شعوبها. وكلنا يعلم نتائج السنوات الطوال التي استحلت فيها دماء المسلمين، وكلنا يعلم نتائج منع السلاح، وكلنا يعلم مصير «المناطق الآمنة»، تحت رعاية الجنود البولنديين. ولكن الذي لم نستبصره هو طمس قضية كوسوفو في ملفات هذا الحلف الى يوم كان موقوتا.

هل هي مصادفة أن يختتم «مؤتمر - رامبوييه» في باريس بحضور واعلان فشله على لسان وزيرة الخارجية الأميركية بوعدها للمفوضين الكوسوفيين خيراً حتى تحول بعد سويعات قليلة الى شر ما كانوا يتوقعون أسوأ منه طوال قرونهم الستة في كوسوفو؟ وهل كانت مصادفة ان تدق ساعة قصف يوغسلافيا ورئيس وزراء روسيا كان في طريقه جوا الى واشنطن وعلى بعد ساعتين فقط منها ليدور ٣٦٠ درجة كاملة عائداً من حيث أتى، حتى انه غير مساره خوفاً من قصف الناتو لطائرته عن طريق الخطأ (وما أكثره عند الناتو)؟ وهل حقاً كانت مصادفة ان تكون زيارة رئيس وزراء الصين في الأيام الأولى من قصف الناتو، تلك الزيارة التي كانت مبرمجة سابقاً ولم تك وليدة لحظتها؟ وهل كانت مصادفة حقاً ان يبدأ قصف الناتو حتى قبل ان يجف حبر انضمام الدول الثلاث الجديدة له. وبعد هذا وذاك، هل هو التناقض او ضحك على الذقون ما يجرى على الحدود الألبانية - الكوسوفية حين تعجز قوات الحلف المتواجدة في كل من ألبانيا ومقدونيا بعشرات الآلاف من الرد على القصف الصربي لقرى ومخيمات اللاجئين الحدودية، وذلك تحت عذر ما اقبح منه الا الفعل من أن الناتو (أو أميركا) لم تعلن الحرب بعد على يوغسلافيا. ذلك العذر الذي ورّط أميركا ان لا ورطة في القانون الدولي عندما أسر الصرب ثلاثة من جنودها في مقدونيا. وبعد هذا وذاك أيضاً، هل كل هذه الأساطيل والقنابل والتدمير ما هي الا حفلة سمر ماسوتشيّه؟ انها لا تطوف حتى على طالب الابتدائية العسكرية والسياسية وجوب تهيئة الأمور على الأرض قبل الجو. فهل كان الناتو فعلاً غافلاً عن إيجاد قوات ولو للردع فقط على طول حدود يوغسلافيا؟ لك ان تعلم أن جميع الدول المتاخمة فاتحة أيديها ترحاباً لهكذا تواجد، إن لم يكن لمبدأ، فعلى الأقل انتظاراً للمكافأة الاقتصادية السخية؟ وهل هو جهل او ضحك على الذقون أيضاً قصف احدى استديوهات تلفزيون بلغراد الرسمي وذلك لتعطيل الارسال التلفزيون والذي عاود الارسال مرة اخرى بعد أربع ساعات فقط (وليس أربعة أيام) وذلك لأن الارسال يتم عن طريق المرسلات وليس عن طريق مواقع ادارية او استديوهات؟

وإن كان ذلك كذلك، فها هو عيد ميلاد الناتو يختتم احتفاله في واشنطن عاصمة هذا الحلف وقائدته بتلك الصور الرائعة البراقة.. ولكن الى أين؟ لقد تعددت دول الحلف الى ١٩ دولة وست أخرى على الطريق القريب.. ولكن يجب أن لا يفوتنا ان تركيبة هذا الحلف غير منطقية: فليس هناك تمازج وليس هناك انسجام بل ومن المستحيل ايجاد هكذا عناصر. فدول الحلف تنقسم الى أربع فئات: دول النفوذ والسيادة الأربع بقيادة الولايات المتحدة، ودول الدرجة الثانية، والتي ضمت للحاجة، وليس للمبدأ مثل اليونان وتركيا (قارن هنا حلف الناتو وقضية قبرص) وبعدها أسبانيا (هذه الدول لا تعتبر من العنصر الأبيض الأصلي)، وهناك الدول التي لا حول لها ولا قوة ولا نريد أن نسميها هنا، وأخيراً هناك الدول التابعة المستجدة والكل يعرفها. ولكن ما هي أهداف هذا الحلف في القرن الجديد الذي أصبح العالم فيه قرية واحدة بأسباب ثورة الاتصالات ومعسكراً واحداً بأسباب اختفاء المعسكرات الأخرى. هل هناك من يجهل أن الوحدة الأوروبية تكاد تكون مكتملة ولديها من يحمي أمنها من خلال «هيئة الأمن الأوروبي»؟ اذاً حماية اوروبا من خلال اميركا هو مبدأ أو سياسة جوفاء. وما موقف حلف الناتو فيما بعد اذا ما أدخلنا في المعادلة «منظمة الدول الاميركية» ويجب ان لا ننسى ما حدث بين بريطانيا والارجنتين في السبعينات من حرب شرسة حول جزر الفوكلاند.

ولكن السؤال الأهم والذي يطرحه حتى أعضاء الناتو هو: الناتو يحمي من؟ وممن؟ انني جدا مقتنع بوجهة نظر أحد المحللين السي[illegible]ين من «مؤسسة كارنجي» لا يحضرني اسمه في مقابلة تلفزيونية له لقوله «اعتقد انه ليس أمام الناتو الا حماية هذا الحلف من الناتو نفسه»، او بتعبير آخر «حماية نفسه من نفسه»، وقد صدق حيث ان النفس أمّارة بالسوء، ولهذا فانه يجب أن لا نختلف ان اوروبا بؤرة قوميات (والمطلع في تاريخ دورة الحضارات يعلم هذا)، والولايات المتحدة برفعها راية «بوتقة انصهار القوميات» لتحارب بزوغ القوميات بكل قواها. ومن منا ينسى محاربة عبدالناصر والقومية العربية.. والكشف يطول. واذا ما أردتم السبب فالولايات المتحدة نفسها تحتوي على ما نعجز عن عده من قوميات حتى يكاد العنصر الأنغلو سكسوني البروتستاني ان يكون أقلية في بلاده.

ولهذا فان ظهورا عالميا للقوميات، شاء له من الزمان ما شاء، لفيه كل الضرر على تلك الولايات المتحدة، ومن أراد الاستزادة فله كتاب «اوروبا: القارة الداكنة» لـ مارك مازوور ((Dark Continent, Mark Mazower أو كتاب «المرأة الأخيرة الباقية» لـ وانانا لادوك (Last Standing Woman, Wanana LaDuke) وغيرهما الكثير. فالقضية أن أوروبا هي مهد ومنشأ القومية والعنصرية ودائما من خلال مجاري الدم وليست كما في دول الشرق الروحانية. والرؤية هي ان اميركا وقعت ٣٥٠٠ اتفاقية مع سكان اميركا الاصليين (الهنود الحمر)، واحترمت كل تلك الاتفاقيات ما عدا ٣,٥٠٠ منها.

والآن، وبعد انتهاء حفل عيد الميلاد ذاك، فما هو المصير. أخذ الحلف بمضاعفة قواته البحرية والجوية مرات ومرات، وأصبحت حرب الأيام المعدودة تمتد ليس لأسابيع، بل لأشهر لأنه وفقا لقادة الناتو مؤخراً «ان الأجواء المطرة تقف عقبة أمام قصف الناتو وأن أحسن الأجواء المناخية هي في شهر يونيو وما يتلوه». وها هي الولايات المتحدة تطلب تخصيص ستة بلايين من الدولارات كخطوة مرحلية اضافة الى ما صرف خلال الثلاثين يوما السابقة بما يزيد عن ثلاثة بلايين. اما النتيجة فيعرفها الجميع، بما فيها دول هذا الحلف: تدمير دولة مدنياً (وليس عسكرياً) والاضرار البيئية بما انتشر من سموم حرائق النفط والمصانع المقصوفة، وانهاء الشعب الكوسوفي من الـ[illegible]. خسائر بشرية ومالية لا تعقل. ومن منا يصدق بعد الآن ان كل عتاد وعساكر الناتو ليست بقادرة على بلد مثل يوغسلافيا محدود الامكانات المادية والاقتصادية والعسكرية، بل ويعتبر من دول العالم الثالث بكثير من المقاييس. ان المطلع ليعلم ان من سيقدم التنازل ليس ميلوسيفيتش، بل حلف الناتو نفسه. وكل الدلائل الجارية تدل على هذا. فها هي «القنابل الذكية» بدأت كمياتها في الاضمحلال من ترسانة الناتو، مما أوجب تشغيل مصانع أميركا على مدار الساعة لتغطية النقص - وليس الاحتياطي. وها هي أولى طائرات «قافلة الأباتشي» ترتطم بالأرض ولكن في البانيا وليس كوسوفو.

ولنا أن نعلم ان هذه الحرب غير المعلنة قد بدأت تأخذ طابعاً واتجاهاً مغايراً ومختلفاً عن توقعات أميركا.. إنها بالفعل لـ «ورطة». ورجوعاً الى سؤالنا الأساسي عن دور حلف الناتو في القرن الحادي والعشرين فان جوابه نوجزه بأنه عندما اختفت الشيوعية كان لا بد من خلق شيطان بديل جديد يحل محلها وتمثل لهم ذلك بـ «الأصولية الاسلامية»، اما الآن فليس هناك اجابة أفضل مما اختاره الصديق العزيز د. خلدون النقيب، في دراسة له في «القبس» (١٩٩٩/٤/٢٧)، من عنوان دال اوجز فيه بثلاث كلمات كل الاجابات «بلقنة الصراع الدولي».

اما ما بقي من «القضية الكوسوفية» فهو أكثر من مليون يساقون قطعاناً كالأغنام مشردّين من بلد لآخر، وأكثر من ربع مليون مختبئون في الجبال والوديان والكهوف وأكثر من ثلث مليون لا يعلم أمرهم الا الله.. وسلوبودان ميلوسيفيتش.. ولكن بالتأكيد ليس «حزب الناتو».

وأما ما بقي للناتو فكلنا يعلم بما حدث لـ «بطرس غالي» أمين عام الأمم المتحدة وعزل الولايات المتحدة (قائدة الناتو) له، فقط لاعلانه على الملأ مسؤولية اسرائيل في ملاحقتها وقصفها الاطفال والنساء والشيوخ في ملجأ الأمم المتحدة «الآمن» في «قانا» لبنان. وكأنها بذلك تعلن للقاصي والداني انه لن يشغل مثل ذلك المركز في «الهيئة الدولية» الا من كانا «مأمورا» في وزارة الخارجية الاميركية.

وما بقي لنا نحن الا التألم للموسيقي المشهور «شتراوس» وهو يتقلب في قبره حزناً وأسى على «والتز الدانوب الأزرق» الذي تحول الى دانوب أسود بفضل قصف الناتو. وبعد هذا لن يستطيع أحد من العشاق أن يتهادى على مياهه التي كانت صافية أو التنزه على جسوره قبل تدميرها الى نهايتها.

(انتهى)